من ثنائيات جسد اللغة إلى ثنائيات لغة الجسد

أ. حمـزة بســـو
قسم اللغة والأدب العربي
جامعة عباس لغرور- خنشلة

ملخص:

إنّ كون الإنسان كائنا اجتماعيا بطبعه – على حد تعبير ابن خلدون – يستوجب عليه أن يتفاعل مع أفراد مجتمعه عن طريق فعل التواصل، الذي ظل يُنظر إليه ردحا من الزمن على أنه قائم على أصوات مركبة وفق نظام تم الاتفاق عليه من طرف كل جماعة بشرية، على أن يحمل ذلك النظام دلالات مشتركة ومفهومة لدى طرفي عملية التواصل (المرسل والمتلقي)، وقد عبّر ابن جني عن شيء من هذا حين عرّف اللغة بقوله: « أما حدها، فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »[1] غير أن علماء اللغة القدامى ظلوا مشدودين إلى البحث في حيثيات الواقعة اللغوية بشقيها (المنطوقة والمكتوبة) ولم يكادوا يجاوزوها إلى ما دونها من أنساق التواصل الأخرى كالإشارات والإيماءات والأعراض وغيرها، سوى ما قد نهض به بعض العلماء الأفذاذ والموسوعيين من أمثال (أبو عثمان الجاحظ) و(الثعالبي) و(ابن جني) غير أنّ دراساتهم لم تتعد حدود كونها إلماحات وتصنيفات وتوصيفات دلالية معجمية، لا تصل إلى درجة المعرفة المتخصصة والمستقلة، ولو سار الأحفاد من بني جلدتنا على خطى أجدادهم وأتمّوا بناء صرح المعرفة التي وضعوا أسسها، لأمكنهم أن يصوغوا نظريات وعلوما جديدة، غير أنهم للأسف ركنوا إلى الراحة، ورضوا باستهلاك ما يصلهم من الغرب؛ غثّه وسمينه، وربّما جاوزوا ذلك إلى شيء من الانبهار السلبي الذي ثبّطهم دون أن يحفزهم على العودة إلى كنوز المعرفة المبثوثة في بطون كتب التراث العربي.

وعلى كل حال، فإنّ هذه الورقة تسعى إلى أن تسلط الضوء على نمط تواصلي، قديم قدم الإنسان، لكن العلم الذي أحاط به حديث حداثة العلوم والمعارف المعاصرة، ونقصد "علم لغة الجسد"، بيد أننا سنركز على زاوية منه ألا وهي زاوية "الثنائيات" قياسا على ما أسسه عالم اللغة السويسري (دي سوسير) من ثنائيات اللغة.

Abstract:

Man is by nature a social being. This requires him to interact with members of his community through the act of communication, which has long time been considered as a conventional system of complex sounds or symbols, a systematic means of common and understandable codes that glean the transmission of messages between senders and receivers. In fact, most of old linguists regarded it as just a spoken or written phenomenon; neglecting other forms of extra-linguistic communication such as signs, gestures and facial expressions …etc.

This paper aims at shedding some light on a form of non-verbal communication, which has become popular in recent years, namely "body language". However, we will place more emphasis on only one angle of it, which is "binaries" angle by analogy with the concept of "binary oppositions" in language proposed by the Swiss linguist "Ferdinand de Saussure".

مقدمة:

إنّ الواقع يشهد بأننا لا نحقق التواصل عن طريق ما هو مكتوب أو منطوق فحسب، بل إنّنا لا نكاد نستغني عن نمط تواصلي آخر لا يقل أهمية عن سابقيه، ونعني "لغة الجسد" من إشارات وإيماءات وهيئات... وعادة ما تكون هذه الأشكال التواصلية مصاحبة للكلام، ألا ترى أنّك إذا أجبت بالإيجاب عن سؤال من يحدثك نطقت بـ "نعم" أو "أجل" وأردفت ذلك بطأطأة الرأس، والحال نفسه في حالة النفي، فإنّك تنطق بـ "لا" أو "كلاّ" وتحرك رأسك ذات اليمين وذات الشمال، ثم إنّك إذا ما غضبت قطبت ما بين حاجبيك وأبرزت عينيك ثم رفعت صوتك بعبارة، وربما صرختَ، والحال نفسه في حالة الفرح، والحزن، وهلم جرا.

إنّ العلاقة بين اللغة المنطوقة (الكلام) ولغة الجسد هي علاقة تكامل، إذ كلّ منهما يكمّل الآخر في تأدية المعاني، هذا ما نبه إليه (الجاحظ) في معرض حديثه عن أنواع البيان، حيث قال:" فالإشارة واللفظ شريكان ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط"[2] ولننظر إلى قوله تعالى: فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا »[3] فنلاحظ أن التواصل محكوم بنمطي التواصل اللغوي والجسدي غير أنّ درجة التأثير ترجح للغة الجسد على حساب الكلام، مثلما أثبتت ذلك عديد الدراسات، والواقع يشهد بهذا، ولنفترض

مثلا أنّ خطيبين كُلّفا بإلقاء خطبة يوم الجمعة بموضوع مشترك، أحد الإمامين ألقى الخطبة قراءة لا غير. بينما الثاني تفاعل مع العبارات بالحركات والإشارات، فلا شك أن تأثرنا بالخطيب الثاني واستيعابنا لموضوعه سيكون أكثر من استفادتنا من خطبة الأول، ولذلك في كثير من الأحيان نعجز عن التعبير بالكلام لسبب من الأسباب، فلا نجد بدا من الالتجاء إلى لغة الإشارة، ولننظر قول الشاعر:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة مذعور ولم تتكلـــــم

فأيقنت أن الطرف قال مرحبـــــا وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم[4]

فلمّا كان المقام غير مناسب للكلام، حياءً وخوفًا من لدن المعشوقة، اقتضى ذلك منها أن تبلغ رسالتها وتعربَ عن مشاعرها، بطريقة أو بأخرى، إذ كتمان مشاعر الحب مستحيل في الغالب، وعلى هذا تمكن العاشق من فك شيفرات لغة جسد محبوبته ومن دون شكّ أيقن أن طرف عينها يرحّب به قائلا: أهلا وسهلا بالحبيب المتيم.

من هنا نفهم قول بعض الحكماء:« رُبّ إشارة أبلغ من عبارة ».

إنّ استخدام الإشارة بالموازاة مع الكلام، مما يقرب الفهم، ويؤدي المعنى المقصود، ولهاذا لم يستغن عنه خيرة البشر محمد عليه الصلاة والسلام في تعليمه للصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وكلّنا يحفظ الحديث الذي رواه البخاري –عليه رحمة الله– قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئا » وهنا إشارة إلى قرب منزلة كافل اليتيم من منزلة ومقام النبي في الجنة.

إشارات التراث العربي إلى لغة الجسد:

لا شك أنّ كتب التراث العربي زاخرة بكثير من المبادئ والأسس والمفاهيم التي نلمحها مطوّرة مطعّمة بالروح العلمية والأرومة الاصطلاحية في الكتب الغربية في عصرنا هذا، من قبيل السيميائية والأسلوبية والتناصية وغيرها، ولسنا نقول في موضوع لغة الجسد، أكثر من هذا، إذ الإشارة إلى هذا العلم ماثلة مبثوثة في ثنايا وبطون كتب التراث العربي، ولولا تقاعسنا نحن العربَ عن قراءة تراثنا بروح معاصرة لما كان السبق في تأسيس النظريات اللغوية والنقدية والعلوم الحالية محسوما للغرب.

لقد أدرك عديد الدارسين من العرب القدامى أهمية لغة الجسد في التعبير عن المقاصد، والأفكار، وخلجات النفوس، كلّ حسب مجال اهتمامه، فوردت بعض الالتفاتات واللطائف والإشارات إلى هذا النوع من التواصل في بعض المعاجم، وكتب البيان، والفراسة، وغيرها، وذلك على نحو ما نعثر عليه عند فخر الدين الرازي" في كتابه "الفراسة" وكذا عند "الغزالي" في كتابه "المستصفى"، وأيضا في كتاب" الإمتاع و المؤانسة" لأبي حيان التوحيدي، و"طوق الحمامة" لابن حزم، و"الزهرة" لأبي بكر محمد بن داود الأصفهاني، و"البيان والتبيين" و"الحيوان" للجاحظ، و"الخصائص" لابن جني، و"فقه اللغة" للثعالبي، وغيرهم كثير، غير أننا سنقتصر على بيان بعض الطروحات التي تنم عن الوعي بقيمة وأثر لغة الجسد في البيان والتواصل عند كل من الجاحظ وابن جني و الثعالبي بشيء من الاقتضاب، لأنّ الإسهاب من شأنه أن يحيد بنا عن صلب الموضوع.

لقد تفطن الجاحظ – قبل دي سوسير و ش. سندرس بيرس — إلى أنّ التواصل و البيان لا يقتصر على ما هو لغوي فقط، وهذا ما حدا به إلى أن يعرّف البيان بقوله: "البيان هو اسم جامع لكل شيء كشف لنا قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير"[5] فقوله: البيان اسم جامع، يعني ضرورةً أنّ للبيان وسائل أو أدوات متعددة، منها ما هو لغوي وغير لغوي، وقد حصرها الجاحظ في خمسة سبل هي: اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال والمسمى أيضا نصبة[6] أمّا اللفظ بما هو أصوات فنخاطب به السامع، وأما الخط فهو الأثر المكتوب وعن طريقه نخاطب القارئ، وأمّا العقد فهو نوع من الحساب، والحال أو النصبة نقصد بها ما أبان من غير إشارة أو لسان وهذا ماثل للعيان في كل ما نراه من مخلوقات حيّة كانت أو جماد؛ من جبال وأنهار وأشجار، وبحار، وسماء وهلم جرا،

فهي في حالة بثّ متواصل لمعان لا يعيها إلاّ أولوا الألباب. وأمّا خامس طرق البيان فهي الإشارة – وعليها مدار الحديث عن لغة الجسد– وتكون "باليد وبالرأس و بالعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان "[7] ورفع الحواجب وكسر الأجفان، وليّ الشفاه، وتحريك الأعناق، وقبض جلدة الوجه"[8] وغالبا ما نعبر في تواصلنا الجسدي عن طريق اليد والرأس بما فيه الوجه بأعضائه خاصة العين، ثم تليها بقية الأوضاع والهيئات، كما هو مبين في الصورة:

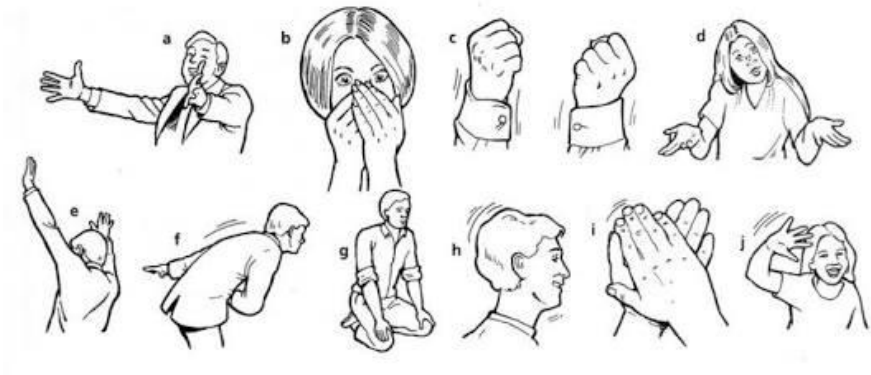

وقد بين الجاحظ في غير ما موضع، أن الإشارة في الغالب تخدم الكلام، والكلام يخدمها، فالعلاقة علاقة تكامل، ولربما نابت الإشارة عن الكلام، فكانت أبلغ مما لو تكلم الشخص.

من العلماء العرب الذين اعتنوا بلغة الجسد أيضا، نجد (الثعالبي) في كتابه "فقه اللغة"، الذي يُعدّ معجما للمعاني، وهذا يعني أنّ حديثه عن لغة الجسد كان بنظرة معجمية بحتة، فقد أفرد لحركات الجسد بابا سمّاه: "باب في الحركات والأشكال والهيئات وضروب الضرب والرمي" غير أنّ قصارى هذا المبحث أو الباب هو توصيف مفصّل للحركات والإشارات والهيئات، دون أن يجاوز ذلك إلى الحديث عن دلالة كل إشارة أو هيئة، ولا يعدّ هذا المسعى منقصة في البحث، إذ طبيعة الدراسة المعجمية لا تلزمه بذكر الدلالات، وإنما ما يلزمه في مثل هذه المعاجم – نقصد معاجم المعاني– أن يورد الباب حول موضوع معيّن، ثم يسوق ما أمكنه من القضايا التي تندرج تحت ذلك الموضوع، ففي الباب المذكور سابقا، نجده يرصد مختلف تمظهرات الإشارات الجسدية، يقول: "أشار بيده،

وأومأ برأسه، غمز بحاجبه، رمز بشفته، لمعَ بثوبه، ألاح بكمّه، قال أبو زيد: صبع بفلان :إذا أشار نحوه بإصبعه مغتابا"[9] هذا عن الإشارات، أمّا عن تقسيمه لأنواع الهيئات فيقول: "إذا جلس الرجل على أليتيه، ونصب ساقيه ودعمهما بثوبه أو يديه وركبتيه، قيل: احتبى. فاذا جلس مُلصقا فخذيه ببطنه ، وجمع يديه و رُكبتيه، قيل: قعد القُرفصاء. فإذا جمع قدميه في جلوسه، ووضع إحداهما تحت الأخرى، قيل تربّع، وإذا ألصق عقبيه بأليتيه: قيل أقعى (...) فإذا ألصق أليتيه بالأرض، وتوسّد ساقيه، قيل: فرشط..."[10]

وقد خصّ الثعالبي حركات اليد بفصل عنوانه: "تفصيل حركات اليد وأشكال وضعها وتقلبها" وقوله حركات اليد، يختلف عن إشارات اليد، لأنّ الإشارة مقصود بها التواصل، أي أنّها تصدر من شخص نحو شخص آخر، قصد إبلاغه معنى معين، أمّا حركات اليد، فلا يُقصد بها ضرورة ما يقصد بالإشارة، وفي شأن حركات اليد يقول: "إذا نظر إنسان إلى قوم في الشمس، فألصق حرف كفه بجبهته، فهو الاستكشاف. فإن زاد في رفع كفه عن الجبهة، فهو: الاستشفاف (...) فإذا ضم أصابعه، وجعل إبهامه على السبابة وأدخل رؤوس الأصابع في جوف الكف (...) فهو القبضة. فإذا ضم أطراف الأصابع، فهي: القبصة. فإذا أخذ ثلاثين، فهي :البزمة (...) فإذا قبض الخنصر والبنصر وأقام سائر الأصابع كان هياكل، فهو: القبع (...) فإذا قال بظفر إبهامه على ظفر سبابته ،ثم قرع بينهما في قوله: ولا مثل هذا، فهو: الزنجير (...) فإذا بسط كفه للسؤال، فهو :التكفف..."[11] وفي موضع آخر يرصد حركات العين واتجاهاتها معطيا إيّاها أسماء مختلفة، بعد نقد أحصى خمسا وعشرين كيفية. وقد انتقل بعد ذلك إلى التفصيل في أنواع المشي ومراحل الإسراع التي تبدأ بالمشي ثم السعي والإيفاض فالهرولة نهاية بالشدّ.

هكذا يتضح لنا أنّ الجاحظ نظر إلى لغة الجسد من زاوية التواصل والبيان، ولم يتعمق في وصف الحركات والإشارات والهيئات، بخلاف الثعالبي الذي بالغ في التوصيف غاضا الطرف عن الأغراض والوظائف البيانية.

بقي أن نشير إلى إسهامات (ابن جني) في هذا المجال، من خلال كتابه "الخصائص" الذي ركز فيه على الجانب اللغوي، وكان حديثه عن لغة الجسد مستنَدا إلى تمام الإبلاغ والبلاغة، وكيفية التعبير بلغة الإشارات عن المحذوف من الكلام لمقتضيات الحال، ففي كثير من الحالات يجد

المتكلم نفسه مضطرا إلى الاستغناء عن الكلام، وتعويضه بالإيماءات والإشارات، وهذا ما يؤكده بقوله: " فإذا وصفت أحدا بالبخل وقلت: سألناه وكان إنسانا! وتزوي وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك: إنسانا لئيما، أو لحزا، أو مبخلا، أو نحو ذلك"[12] فنلاحظ أن إزواء الوجه وتقطيبه ناب عن كلمات جارحة، كان من الأولى تجنب ذكرها.

إنّه ما من موضع يورد فيه ابن جني إشارة إلى التواصل الجسدي/الإشاري إلا كان ذلك الموضع موضع بيان لطرق تعزيز البيان في عملية التواصل، وتقويته، وتعزيزه، وكذا علاقة التواصل اللساني بالتواصل جسدي، وهذا المبحث يندرج في صميم معارف حديثة كعلم التواصل والسيميولوجيا والتداولية، وكلّها تعنى بكيفية تمفصل الأنساق الدلالية ضمن سياقاتها، ومن النماذج التي يسوقها ابن جني للتدليل على أنّ الدلالة أو الصورة التعبيرية تتعزز وتتعاظم كلّما اقترنت بإشارة جسدية، قول الشاعر:

تقول –وصكت وجهها بيمينها– أ بَعْليَ هذا بالرحى المتقاعسُ!

وسياق هذا البيت كما ورد في حاشية المحقق أنّ الشاعر كان قد عقد له النكاح على امرأة ولم يدخل بها بعد، فمرّت به في نسوة وهو يطحن بالرحى لضيف نزلوا به، فقالت: أ بعلي هذا! تعجبا واحتقارا له، فقال الأبيات. ويُعلّق ابن جني على هذا البيت الشعري قائلا: " فلو قال حاكيا عنها: أ بعلي هذا بالرحى المتقاعس– من غير أن يذكر صكّ الوجه– لأعلمَنا بذلك أنّها كانت متعجبة منكرة، لكنّه لما حكى الحال فقال: (وصكّت وجهها) عُلم بذلك قوّة إنكارها، وتعاظم الصورة لها، هذا مع أنّك سامع لحكاية الحال، غير مشاهد لها، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف"[13]

إنّ المرء وهو يخاطب غيره، يركز على وجه السامع، حتى يلاحظ ردة فعله في الغالب، فإن بدت علامات الرضا على صفحات وجهه، واصل كلامه، وإن ظهر عكس ذلك، فلا مناص من تحويل مجرى الكلام، وفي معظم الأحوال تكون المقابلة بين المتواصلين ضرورة.

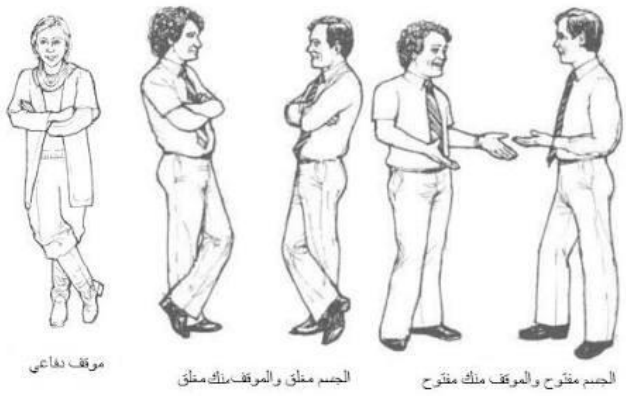

قراءة لغة الجسد

وهذا ما يؤكده ابن جني حين يقرر قائلا: " أولا تعلم أنّ الإنسان إذا عناه أمر فأراد أن يخاطب به صاحبه، ويُنعم تصويره له في نفسه استعطفه ليُقبل عليه؛ فيقول له: يا فلان أين أنت، أرني وجهك، أقبِل عليّ أحدثك، أ ما أنت حاضر يا هناه، فإذا أقبل عليه، وأصغى إليه، اندفع يحدثه أو يأمره أو ينهاه، أو نحو ذلك، فلو كان استماع الأذن مغنيا عن مقابلة العين، مجزئا عنه لما تكلّف القائل، ولا كلّف صاحبه الإقبال عليه، والإصغاء إليه، وعلى ذلك قال:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها من العداوة أو وُدٍّ إذا كانـــــا"(14)

ولهذا يقال « ربّ إشارة أبلغ من عبارة » وهذا يثبت أنّ الكلام وحده يبقى قاصرا عن التعبير عن الأفكار وخلجات النفس.

مفهوم لغة الجسد:

لقد تعددت تعريفات لغة الجسد من باحث لآخر، غير أنّهم أجمعوا في تعريفاتهم على الخطوط العريضة التي تحدّد تخوم هذا المفهوم، الذي ينص في العموم على اللغة البصرية التي تستند إلى حركات أعضاء الجسد من إشارات وهيئات وأوضاع وكيفية النظر إليها على أنّها نسق تواصلي ناقل للدلالة بين المتواصلين، فإذا كانت اللغة المنطوقة أو المكتوبة مادتها هي الكلمات، فإنّ هذا النوع التواصلي مادته الحركات والإشارات والإيماءات والأوضاع والهيئات، وأكثر الأعضاء استعمالا فيها، الوجه بالدرجة الأولى على اعتبار تجمع بعض الأعضاء فيه والتي تشتغل بانسجام مع بعضها، العينان والحاجبان والفم و ما يتبعها من حركة الخدين والفكين وانقباض جلدة الجبهة على

شكل تموجات، ويلي هذا كله حركات اليدين بالدرجة الثانية. وعلى العموم سنسوق جملة من المفاهيم التي حدّدها بعض الباحثين الغربيين والعرب.

نبدأ بتعريف إدوارد هال " Edward Hall " أحد مؤسسي هذا التخصص، يعرف لغة الجسد بقوله: "هي لغة صامتة (silent language) غير لفظية، تستخدم الإشارات و الإيماءات الصادرة عن جسم الإنسان في المواقف المختلفة كناقل للمعنى"[15] فمدار الأمر هو المعنى، وغالبا ما نستشفّ هذا المعنى من خلال الإشارات و الإيماءات، أمّا الهيئات والأوضاع الجسدية، فغالبا ما تخفى معانيها على العامة، و يدركها المتخصصون في هذا المجال، ولهذا ركز هال في تعريفه للغة الجسد على الإشارات والإيماءات. وفي مصب هذا المفهوم نجد تعريف "فريد لوتهانس" " freed luthans" فلغة الجسد عنده هي: "اتصال غير لفظي ولغة غير مكتوبة تشير إلى استجابات الإنسان غير الكلامية مثل: تعبيرات الوجه و الإيماءات و الإشارات و الحركات و المسافة بين الأشخاص"[16]، هذه الأخيرة – المسافة الفاصلة بين الأشخاص– ظهر علم قائم بذاته يهتم بها يطلق عليه "التواصل الحيزي/ البروكسيما" (Communication Proxémique) حيث يرى أنّ المسافة الفاصلة بين الأشخاص تشكل فائضا مضمونيا، فالمسافة بين الشخص وصديقه تختلف عن المسافة بينه وبين عامة الناس، أو شخص آخر غير مقرّب عند التحاور، ولذا يعرف إدوارد هال هذا الفرع المعرفي بأنّه "جملة المعاينات والنظريات المتعلقة باستعمال الإنسان الفضاء بما هو منتوج ثقافي مخصوص"[17] وقوله منتوج ثقافي مخصوص، يعني أنّ العُرف الثقافي بأبعاده الاجتماعية والدينية والنفسية والمعرفية هو المحدد للمسافات الفاصلة بين الأفراد في المواقف والأماكن المختلفة، وهذا يعني أيضا أن لكل مجتمع تحديد خاص لحدود تلك المسافات.

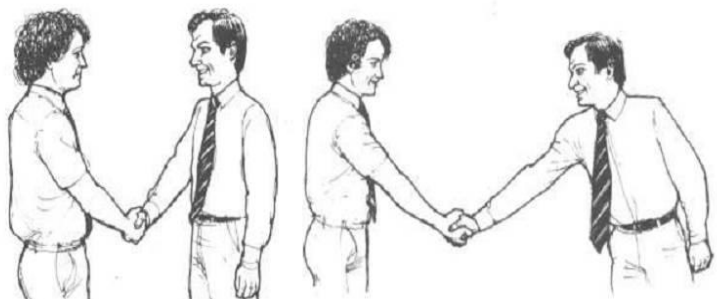

Figure 13 *Two men from a country town*

Figure 12 *Two men from the city greet each other*

وأمّا "جون هاس"« John Hasse » فيرى أنّها "شـكلٌ من أشـكال التّفاهم غير اللفظي تقوم فيه الحركات والإشـارات وتعبيرات الوجه وأوضـاع الجسـم بنقل أفكارنا وانفعالاتنا لشـخص آخر"[18] وقد تنصـرف أذهاننا من خلال هذا التعريف إلى أنّ التواصـل الجسـدي يكون دائما مقصودا، ما دام الغرض هو التفاهم/ التفاعل، غير أنّ الواقع يشهد أنّه في كثير من الأحوال يسعى أحد الطرفين للتعمية والإخبار بالكلام عن أمر ما يخالف ما يضـمره صـاحبه، فينكشـف أمره وتفضحه لغة جسده، من غير ما تعمّد وقصد.

لقد بدأ الاهتمام بلغة الجسد عند الباحثين العرب في السنوات الأخيرة، فمنهم من أفرد كتابا وخصّـه بلغة عضـو جسـدي معيّن، ومنهم من بحث في لغة الجسـد بصـفة عامة، زمن ذلك نجد كتاب (الإشارات الجسميّة) لـــ "كريم زكي حسام الدّين" و كتاب (لغة العيون) لـــ"ضياء غنّي لفتة" و"علي محسن بادي"، وكتاب (الدّلالة و الحركة) لـ"محمّد داود"، و كتاب (البلاغة القرآنية في التّصوير بالإشارة و الحركة الجسمّية) لـــ "عبد الله محمّد سليمان هنداوي". فكلّ هذه الكتب تدرس نوعا أو نوعين للغة الصـامتة وأمّا الكتب التّي تناولت هذا الموضـوع بعمومه وجزئياته، نجد كتاب (لغة الجسـم) لمدحت محمّد أبو النّصر، وكتاب أسعد عزّار (البيان بلا لسـان- دراسـة في لغة الجسد)، الذي نشر سنة 2007، ويعدّ هذا الكتاب الأخير دراسة متميّزة ، بل يعدّ من أوعب الدراسـات العربية في هذا المجال. يعرّف "مهدي أسـعد عزّار" لغة الجسـد قائلا: هي "الرّافد الصّـامت المفضـي إلى معنى، وهي معلومة معروفة عند جميع النّاس."[19] وإن كان تعريفه هذا لا يتمحض للغة الجسد ولا يفيها حقّها، إلا أن تفصيلاته للغة الجسد على مدار فصول كتابه تنبئ القارئ بمفهوم هذه اللغة وتؤكد أنها لغة مكتملة ونسـق تواصـلي كلماته الحركات والإشـارات والأوضاع والهيئات، وهو في كل هذا يؤصل لهذه اللغة ويرصدها ويمثّل لها بنماذج مما ورد في القرآن الكريم، والسـنة النبوية، والتراث العربي. أمّا ‹‹عبد الله بن عبد الكريم›› فيعرّفها بأنها : "لغة غير لفظية تشمل الحركات والإشارات و الإيماءات و التعابير الصادرة عن أجزاء من جسم الإنسان في مواقف مختلفة، وهذه اللغة تحمل معاني ودلالات رمزية وتساعد على التواصل مع الآخرين والتأثير عليهم بطريقة إيجابية أو سـلبية."[20] فالملاحظ من خلال جملة التعريفات السـابقة الأجنبية والعربية، أنّها تجمع على كون لغة الجسـد لغة عالمية ليس للإنسـان أن يسـتغني عنها في تواصـله،

مادتها ليست الكلمات، وإنّما حركات أعضاء الجسد وأوضاعه وهيئاته، وهي في كل هذا تعتبر من أبرز أنساق التواصل وأجداها فعالية.

ثنائيات لغة الجسد:

لقد وضع رائد البحث اللغوي الحديث (فردنان دي سوسير) لجسد اللغة مجموعة من الثنائيات، كالدال والمدلول، اللغة الكلام، البنية والنظام، محور التراكيب ومحور الاستدلال... وإن كان كلّ ذلك في بنية اللغة أو جسد اللغة، فإن للغة الجسد أيضا ثنائيات(*) متعلقة بالحركات الجسدية، وهي على النحو الآتي:

- الحركة الجسديّة بين الفطري والمكتسب.
- الحركة الجسديّة بين الدال والمدلول.
- الحركة الجسديّة بين التواصل والتفاصل.
- الحركة الجسديّة بين العامّ والخاص.
- الحركة الجسدية بين الإرادية والتلقائية.

وممّا لا شكّ فيه، أنّ الحركات الجسديّة جميعَها قائمة على دال ومدلول، كما أنّها قد تكون حركات فطريّة أو مكتسبة، عامّة أو خاصة، إراديّة أو تلقائية، استعملت للتواصل أو للتفاصل.

أولا: الحركة الجسّدية بين الفطري والمكتسب:

من المفيد – في هذا المبحث– أن نثير السؤال نفسه الذي أثير ميدان فقه اللغة، والذي مؤدّاه: ما هو أصل اللغة، أهي توقيفية أم تواضعية؟ وبعبارة أخرى هل يعدّ أصل اللغة الفطرة أم الاكتساب؟ وعليه فهل أصل لغة الجسد الفطرة أم الاكتساب؟

لقد تتبّع كثير من الدارسين منشأ الحركات الجسديّة، وقاموا بدراسات ميدانية وإجرائية، طبّقوها على أجناس بشرية مختلفة عبر أصقاع العام المختلفة حتّى يتبيّنوا أصل اللغة الجسدية أهي الفطرة أم الاكتساب.

ومســـتصـــفى القول في تلكم المســـاءلات أن بعض الحركات باعثها فطرة الله التي فطر الخلق عليها.[21] والبعض الآخر يتولد عن طريق الاكتساب. أمّا الحركات الجسديّة الفطريّة فهي موجودة لدى جميع البشر مثل الابتسام الذي يدلّ على الاطمئنان والفرح، والعبوس الذي يدل على الحزن، وهزّ الرأس للتعبير عن الموافقة أو الرفض؛ وتذكر بعض الدراسات النفسيّة حالة طفل ولد أعمى قد لاحظت أمّه أنّه كان يعبّر بعد فترة عن الرفض بهزّ الرأس من جهة لأخرى كما يفعل الراشـــدون، وهذا المثال يدلّ على أنّ بعض الإشارات تتكون فطريا لدى الإنسان.[22]

وقد تردّدت الحركات الفطريّة بين ستة معانٍ سميت بالانفعالات الستّة العالمية:

- أوّلها البهجة أو السعادة.
- وثانيها الحزن.
- وثالثها الاشمئزاز.
- ورابعها الخوف.
- وخامسها الغضب.
- وسادسها الدهشة.

و"الحقّ أنّ بمُكنة المرء – بقطع النظر عن لونه وجنســه ومشــربه ولســانه– أن يقتنص هذه المعاني بالفَيء إلى الإيماءات والحركات الفطرية التي تظهر في سياقها."[23]

ففي إحدى الدراســات عُرضــت مجموعات من الوجوه المعبّرة عن حالات انفعاليّة معيّنة على جماهير من الطلاب والناس من فئات مهنيّة مختلفة في خمس حضارات هي: اليابان، البرازيل، شيلي، الأرجنتين، والولايات المتحدة الأمريكيّة، طُلب منهم جميعا أن يصفوا الحالة الانفعالية المصاحبة لكلّ

صورة، فتبيّن أنّ هناك تقاربا كبيرا في الأحكام، خاصة بالنسبة لستة انفعالات...وقد كانت النسبة على النحو المبيّن في الجدول الآتي:

البلد	حزن	اشمئزاز(قرف)	غضب	دهشة	خوف	سعادة(بهجة)
اليابان	74	72	63	87	71	87
البرازيل	82	86	82	82	77	97
شيلي	90	85	76	88	78	90
الأرجنتين	85	79	79	93	68	94
و. م. أ	73	69	69	91	88	97

النسبة المئوية للأحكام الانفعالية في حضارات مختلفة[24]

فنلاحظ من خلال النتائج المتوصل إليها في هذه الدراسة الميدانية، أن الحاصل شبه إجماع على دلالات تلك الصور المعبرة عن حالات انفعالية ملازمة للإنسان، وما دامت كذلك فمن البدهي أن يحصل هذا الاتفاق على دلالاتها، مهما اختلفت ثقافات الشعوب، لأنّه لا يُتصوّر أن يبتسم الشخص دون تفريج الشفتين، ولا إظهار الغضب دون تقطيب الحاجبين، ولا الدهشة دون توسيع حدقة العينين، وهلم جرا.

إضافة إلى تلك الحركات الجسدية الفطريّة هناك حركات جسدية مكتسبة وعنها يقول (كريم زكي حسام الدين):"وهي التي يكتسبها الطفل من المحيط أو البيئة التي يعيش فيها، ونرى أنّ هذا النوع الثاني من الإشارات ينمو مع الطفل ويصاحب عملية اكتساب اللغة، حيث تتفاعل مع الكلمات لتحقيق التواصل المنشود بعد عامه الأوّل".[25]

وقد أنشأت بريطانيا مؤخرا مراكز للأطفال الذين لم يبلغوا سّن التمدرس تقوم بتعليمهم بعض الإشارات والحركات الجسديّة من أجل التواصل بعدما اقتنع الدارسون أنّ الأطفال في مراحلهم العمريّة الأولى يحتاجون في تواصلهم مع الأبوين لحركات وإيماءات تمهّد لعمليّة التواصل اللغوي

ومن أمثله ذلك لفظ: باي باي Bay-Bay، فالطفل الصـــغير لا يمكنه تمييز الدلالة التي يحيل عليها هذا اللفظ إلاّ بإشـارة من يد الأم أو الأب حالة خروجه من المنزل، والأمر نفسـه في تعليم إشارات الصمّ والبكم، ومن الأمثلة كذلك التّحايا العسكرية والغمز بطرف العين، وغيرها، وكلّها تؤتى بعدى الاكتساب، وفي هذه الحالة قد تختلف الحركات الجسدية من شعب لآخر، ومن مجتمع لآخر، ومن حقل معرفي أو مهني لآخر.

ثانيا: الحركة الجسّدية بين الدال والمدلول:

يقف رائد البحث اللغوي في العصر الحديث (فردنان دي سوسير) في طليعة العلماء الغرب الداعين إلى دراسـة اللغة في إطار علم سمّاه:(Semiology) لأنّ اللغة نظام من الرموز لا يختلف عن غيره من الأنظمة الإشـــارية التي تجمعها غاية واحدة هي التعبير عن المعاني أو إظهار دلالات مختلفة.(26) فقد لاحظ "دي سـوسـير" أن للكلمة جانبان: واحد ماديّ وآخر معنوي، أمّا الماديّ فهو الدال، وهو الصـورة الصـوتية وأمّا المعنوي فهو المدلول، وهو الصـورة الذهنية التي تنقدح في الذهن عند تلقي الدال، والحقّ أنّ الحركة الجسـدية كذلك أمرها، إذ إنّها قائمة على دالّ ومدلول؛ أمّا الدال فهو الصـــورة الشـــكلية التي تتجلّى عليها الحركة، كحركة الكفّ أو اليد أو العين أو الحاجب أو الوقفة...وأمّا المدلول فهو الصـــورة الذهنية المعنوية التي تســـترفد دلالتها من الدال الحركي، فكلتاهما- أعني الكلمة في اللغة الصائتة، والحركة في اللغة الصامتة (الجسدية)- تألفت من دال ومدلول، والملمح المفرّق بينهما غير متعيّن في المدلول، بل في ماهية الدال إذ إنّه في الصـــائتة صـوتي ذو طبيعة رمزيّة، وفي الصـامتة حركي ذو طبيعة رمزيّة أيضـاً.(27) ولذا فالبحث عن نقاط الاختلاف بين اللغة اللسانية واللغة الجسدية، لا ينبغي أن يكون على مستوى المدلولات، بل على العكس من ذلك ينبغي أن يتم على مستوى طبيعة الدوال. وهناك عديد القضايا التي تتفق فيها اللغة الصائتة- سواء المنطوقة و المكتوبة- مع لغة الجسد، ومن ذلك ظاهرة "المشترك الدالّي" أو أن يدلّ على المعنى الواحد أو المدلول الواحد عدّة دوال، وكذا ظاهرة المحظورات اللغويّة (TABOO) والســـياق،كما يحدث أن يقع تحت الكلمة معنيان أو أزيد، لتغدوا ممّا ينتســـب إلى "المشـــترك اللفظي"، فإنّ الحركة الجسديّة قد يقع تحتها معنيان أو أزيد، فتنتسب إلى ظاهرة "المشترك الحركي".

فالدال (فرك الكفين): قد يومئ بمدلولين: أوّلهما أنّ صـــاحب هذه الحركة قد اعتراه برد فأتاها، وثانيهما أنّه فرح مبتهج...هذا المحتمل لا قبل لنا باستشراف مدلوله على وجه الإحكام والتعيين إلاّ بـ"السياق" الذي يرد فيه هذا الدّال الحركي؛ السياق الثقافي، والحالّي، والقرائن الاجتماعية التي تحتفّ به.

وحك الرأس حركة جسدية مشتركة تستدعي معان مخصوصة في الذهن، ومن ذلك أنّها قد تدلّ على أنّ آتيها في رأســه قشــرة أو قمل، وقد تدلّ على قلق المرء واضــطرابه...وقد تدلّ من وجهة دلالية أخرى على نفاد الصبر، أو النسيان، أو الكذب.[28]

إذن تكتسب كل حركة أو إشارة جسميّة دلالتها مثل الكلمات، من خلال "السياق" الذي تستعمل فيه.[29]

وكما أنّ المعنى الواحد قد يعتريه كلمتان بل كلمات، لينشــأ من بعد ذلك الترادف فإنّ طائفة من الحركات قد تلتقي على معنى واحد، لينشأ بعد هذا" الترادف الحركي" ومن ذلك معنى الرفض، فله دالان أو أزيد، كالرّفض بهزّة في الرأس، والرفض بالإشارة باليد، والرفض برفع الحاجبين إلى الأعلى مع توسّع العينين، فحركة كلّ جارحة كفيل أمين بتأدية المعنى قد تأتي به اللغة الصامتة.[30]

وكما يشيع في اللغة الكلامية وجسد اللغة ظاهرة "المحظورات اللغوية" TABOO التي نتجافى عنها ما استطعنا ذلك أنّها من المستهجن المستقبح الذي تمجّه النفس وينبو عنه السمع، فإنّها تشيع في لغة الجسد كذلك، ففيها حركات وهيئات وإرشادات مستقبحة تنتسب إلى المحظورات الحركيّة المطّرحة، ولعلّ إتيانها قد يفضي إلى الولوج في مزالق الحرج الاجتماعي أو الإشكال.

لعلّه يظهر بجلاء ممّا تقدّم أنّ بعض النظريات الدلالية والمعجميّة يمكن جدًا أن تطبق على لغة الجسد، كالترادف والمشترك، والسياق...[31] وقد آثرنا في تحديد نقاط التقاطع بين جسد اللغة ولغة الجسد أن نصطنع مصطلح (المشترك الدالّي) بدل المشترك اللفظي في اللغة المنطوقة أو المكتوبة، والمشترك الحركي في لغة الجسد، واصطنعنا مصطلح (المشترك المدلولي) بدل مصطلح الترادف، وعليه نقول: إنّ لغة الجسد تتقاطع مع جسد اللغة في عدّة أمور منها: المشترك الدالّي، والمشترك المدلولي، والسياق، والمحظورات لمانع ديني، أو سوسيو-ثقافي.

لقد تصور دي سوسير آلية التواصل بين المتخاطبين، فوضع مخطّطًا للعملية التواصلية بين طرفين، أطلق عليه اسم: دار التخاطب أو الدائرة الخطابية.

من هذا المنطلق ارتأينا أن نضع مخطّطًا تواصليا يعتمد على الإشارات والحركات الجسدية، بدل الدوال الصوتية وأطلقنا عليه اسم "دارة التواصل الصامت" أو "دارة التخاطب عبر لغة الجسد"، وهو على النحو الآتي:

دارة التواصل الصامت

(دارة التخاطب عبر لغة الجسد)

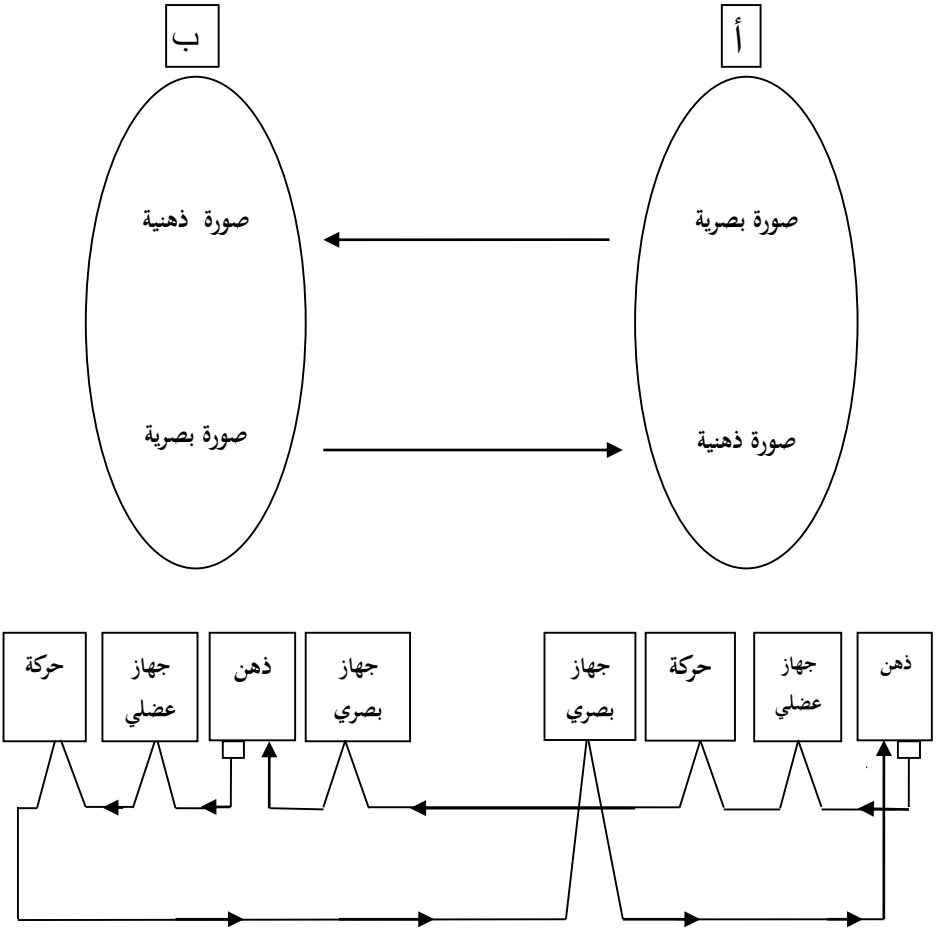

شرح الدارة:

نفترض وجود طرفين في العملية التواصلية عبر لغة الجسد، الطرف الأوّل وضعنا له الرمز "أ" والطرف الثاني وضعنا له الرمز "ب". تنطلق العملية من الطرف الأوّل من خلال الذهن لأنّ المدلول صورة ذهنية معروفة أو متعارف عليها عند كلا الطرفين بحسب المرجعية {دينيّة، ثقافية، اجتماعية...} ومن الذهن إلى عضلة من عضلات الجسم، والتي تُنتج حركة جسدية يستقبلها الطرف الثاني بواسطة جهازه البصري- العينان- وصولاً إلى الذهن الذي يقوم بتحليل تلك الحركة، فيتولّد الفهم، ويتحصل الطرف المستقبل على ما يسمى بالمدلول، وتتكرّر العملية من الطرف "ب" إلى الطرف "أ".

وهناك ملحوظة لا ينبغي إغفالها، وهي أنّ العملية التواصلية تنطلق من الذهن وصولاً إلى الذهن، فالعبرة إذًا في المدلول لا في الدال.

ثالثا: الحركة الجسّدية بين التواصل والتفاصل(*):

قد يرد على أذهاننا التساؤلات الآتية: هل نستعمل لغة الجسد دائما عن قصد، وللتواصل، ولصالحنا؟ أ لا يحدث أن نستغل لغة الجسد لإيهام غيرنا بأمر ما، وليس الأمر كذلك؟ ألا يستطيع المرء الذي نحاول إيهامه وتضليله والتعمية عليه أن يكتشف تصنّعنا للحركات والأوضاع الجسدية؟

لقد بات مقرّرًا ممّا تقدّم قبلاً وسيأتي بعدًا، أنّ للجسد لغة برانية تشي بأغراض نفسية جوانيّة، وتفيد معاني، وتؤدي أغراضا، وكلّ هذا ينتسب إلى باب القول على التواصل والإبانة، ولكن قد يرد على المرء أحداث كلاميّة يعتريها لبس وإشكال، وقد يقع المرء في مضمار الإلباس والتعمية، والحقّ أنّ هذا اللبس أو الإلباس قد يقعان في اللغتين الصامتة والصائتة... والتمثيل على هذا كثير في الأحداث الكلامية – والتي تصاحبها حركات جسّدية – فكثيرا ما نسمع أو نقول:

- لسانه يقول لي أهلا وسهلا، وتعابير وجهه بخلاف ذلك.
- لم أر في عينيه الصدق، مع أنّه غلظ أيمانه.
- حركات هذا الرجل تبعث في نفسي الريبة.
- أرى أنّه متمارض، فحركاته متصنّعة لا تدلّ على زعمه.

– هذه ابتسامة كاذبة، وتلك ضحكة صفراء.[32]

ألا ترى من خلال الأمثلة السابقة أنّنا كثيرا ما نكتشف تلك التعمية والحركات المتصنّعة، بل قد تتحول في كثير من الأحيان من مصدر تعمية إلى مصدر تصريح بما تم كتمانه، هذا تحديدا ما قرّره الخليفة الراشد علي رضي الله عنه حين قال بعد طول خبرة بأحوال الناس: «ما أضمر أحد شيئا إلاّ ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه»[33]. ومن الحكم المأثورة «عين المرء عنوان قلبه».

إنّ المرء في معاملاته قد يلجأ إلى التعمية والتضليل عن طريق الحركات الجسدية أو الأوضاع والهيئات، أو الإشارات، وذلك طبعا لحاجة في نفسه، ولعلماء الفراسة أقوال عديدة تؤيّد ما تقدمّ لا حاجة لنا إلى إيرادها، وإنما نعمد إلى الأدلّة الحسّية والشواهد العيانيّة ألم يكن محمّد علي باشا الكبير لحسن فراسته يستطلع أخلاق المذنب ويحكم عليه لمجرّد ما يظهر من ملامحه...ناهيك عمّا في التاريخ من أمثلة هذه الحوادث ممّا يضيق المقام عن استيفائه، ومرجعه إلى أنّ بواطن الإنسان تتجلّي في ظواهره وخصوصا في وجهه.[34]

والوجه هو الأداة الرئيسة لتصنّع الحركات والتعمية والتغطية على الضمير المستتر في النفس، ففيه العينان والشفتان والحاجبان والجبينان، والجبهة والشعر والأنف والفم، كل ذلك ذو أثر ظاهر في محاولة إظهار معان مصنوعة تخفي مراد النفس المستتر كالتبسم أو التجهم أو الضحك أو التراخي، وحسبنا استذكار مقولة المعاني الست العالمية التي تتجلى في الوجه"[35]من بهجة أو حزن أو اشمئزاز أو خوف أو غضب أو دهشة، والتي عادة ما يسعى الموهم استثمار أحدها بالتصنع للدلالة على غيرها.

إنّ المشاعر وخلجات النفس، لا تتمظهر على صفحات الوجه دون غيره، فقد يُظهر المرء الخوف مثلا عن طريق رعشة في اليد متصنّعة تموّه بخوفه، غير أنّ إبداء هذا الخوف قد يضلّل بشكل ناجح، إذا ما أحسن المرء إبداءه على قسمات وجهه، لأنّ في الوجه أعضاء تنسجم مع بعضها لتأدية نوع من المشاعر المذكورة آنفا. وقد يعمد المرء إلى الهيئات العامة للتعمية والتغطية، ومن ذلك المشية والجلسة وغير ذلك مما يمكن أن يكون مدخلا من مداخل الإلباس والتعمية الجسدية التي تتخذ للكذب و إخفاء الحقائق أو تُتّخذ في التمثيل والأداء المسرحي، فكل ذلك حركات جسدية مغتصبة يجتلبها الممثل في أداء عرضه، فيظهر وقت الغضب غضبان أسفا قد

اعترى وجهه ما يسند هذا المعنى ويصدّقه، كذلك في كل المعاني الأخرى التي يؤديها تمثيلا غير حقيقي.(36)

وصفوه المستخلص مما تقدم أنفا أن المرء يملك من إمكانيات الإلباس والتفاصل ما يملكه من إمكانيات الإبانة والتواصل، وقد يستعين على ذلك بالرافدين :اللفظي المتخلق من الكلاميات ،والجسدي المتخلق من الصمتيات والحركيات ... ولذلك يمكن أن تُتناول الحركات الجسدية والهيئات العامة من وجهة أخرى، وهي ترددها بين الحقيقة الواقعة والتصنع الذي يصدق عليه أنه زعم جسدي حركي، والزعم أخو الكذب.(37) فكما يستطيع الإنسان التعمية والإلباس بلسانه، يستطيع كذلك أن يعمي ويلبس على غيره بواسطة لغة الجسد، قد يضطر الإنسانَ إلى مثل هذا الصنيع مواقفُ لا مناص من التحايل على غيره فيها، تجنبا للعقوبة أو تبدد الثقة وربما لإيثار الغير، على نحو ما تفعله الأم مع أبنائها إذا كان الطعام قليلا، فتتظاهر بالشبع ليأكل صغارها، وهو حال الضيف مع ضيفه، وغيرها من المواقف، وكلّها استراتيجيات تضمن للإنسان تخطي العقبات التي تواجهه في حياته اليومية.

رابعا :الحركة الجسدية بين العام والخاص:

سبق وأن ذكرنا أنّ هناك حركات جسدية مشتركة عامة لا يختلف فيها اثنان، فهي حركات مشتركة بين كافة البشر بغضّ النظر عن الجنس أو العمر أو الحضارة أو الثقافة، ومن تلك الحركات ما سبق ذكره في الحركات الجسدية الفطرية ونقصد بذلك الانفعالات الستة العالمية، وحركاتها عامة لا تتغير بتغيّر الثقافة أو البيئة، ولكن في مقابل ذلك حركات خاصة ببيئة أو مجتمع معيّن ولّدتها الأعراف الثقافية، فهناك حركات تحمل دلالة معينة في مجتمع ما، لكنها قد تحمل عكس تلك الدلالات في مجتمع آخر، وعليه لا يكفي أن نمتلك لغة بلد أجنبي ما نرغب في زيارته، بل لا بدّ من امتلاك لغة الجسد الخاصة بذلك البلد، لنضمن التواصل الصحيح السليم، وحتى لا نقع في مواقف محرجة تعود علينا بالخسران، " ليتخيّل المرء نفسه على صعيد غربي ناء، فقد يقع في نفسه معان ودلالات باعثها الحركات والإشارات التي يراها ممن تصدر عنهم، والذي يظهر أن تلكم المعاني الآتية من " لغة الجسد" مما ينتسب إلى معجمه المعنوي كالمعاني الانفعالية الستة التي أتينا عليها آنفا، ولكنه قد يقف وجاه حركات أخرى مما هو خارج عن مضمار معجم ثقافته. ومن هنا

لا بد "في درس لغة الجســـد" من التلميح إلى أن ثم لغة عالمية، وثانية خاصـــة تختلف باختلاف الثقافات."[38]

إنّ لغة الجسد في شقها الخاص، مثلها مثل اللغة الملفوظة، تختلف من مجتمع إلى آخر، حيث تخضع للتواضع، وتخضع للمتحكمات الثقافية من عادات وتقاليد وطقوس، والمتحكمات الدينية كالتشـهد بالسـبابة في الإسـلام مثلا، والمصـافحة في حالات، والعناق في حالات أخرى، ولهذا فعلى المرء إن أراد التعامل مع شـخص أجنبي، لزمه أن يعرف طبيعة لغة الجسـد في ثقافته لأن لا يقع في مطبات الإحراج، لأنّ "البيئة الاجتماعية والثقافية تلعب دورا هاما في لغة الجسم والتعرف عليها وفهمها. فبيئة التواصـــل هي التي تجعل للغة الجســـم معنى معينا واحدا بين أفراد الشـــعب المنتمين لثقافة معينة هذا المعنى قد يختلف في بلد آخر وثقافة أخرى"[39]

وفيما يلي بعض الأمثلة على الاختلافات بين الجنسيات و الثقافات المختلفة.

– في بعض أجزاء العالم اللاتيني من الأعراف اللائقة اجتماعيا أن تنظر النســـاء للأســـفل عند التحدث للرجل فالتلاقي المباشر للعيون يعتبر بمثابة دعوة إلى علاقة خاصة.

على حين أن النظر للأسفل في معظم بقية أجزاء العالم هو دليل لفقدان الأمان وعدم الثقة و الخداع...

– أما اليابانيون فإنهم يُتقنون لغة أجســـامهم أكثر من شـــعب أخر، فمن الصـــعب لشـــعوب الثقافات الأخرى أن يدركوا أحاسيسهم من وجوههم الجامدة وأجسامهم الساكنة.[40]

تدل الإيماءات التي يستخدمها الناس على بُعد ثقافي، فعلى سبيل المثال إذا كان الشخص من شمال أوروبا فإنه ســـيميل بقوة إذا كان قلقا، ولكن مثل هذه الإيماءات تكون عادة مصـــاحبة لأشخاص من جنوب أوروبا في مناقشاتهم.

وفي البلاد الناطقة بالإنجليزية غالبا ما يحييّ الناس بعضـــهم البعض حتى و إن تعارفوا على بعضهم البعض للمرة الأولى دون أي لمس ويكتفون بتبادل نظرة ودية وانحناء مهذب، أما في فرنسا فغالبا ما يحيي الناس بعضـــهم البعض بمصـــافحة وقبلة على الوجه وربما يفعلون ذلك أحيانا كلما التقوا خلال نفس اليوم[41].

يتّضح لنا من خلال الأمثلة أن تعلم لغة ثقافة ما أو حضارة ما غير كافية في التواصل الفعال مع أفراد تلك الثقافة، فهناك لغة أخرى ينبغي تعلمها تفاديا للمزالق التي قد نقع فيها إذا ما كنا نجهل ثقافة بلد ما، ونقصد لغة الجسد.

وعموما ينبغي على كل فرد يهدف إلى تحقيق تواصـــل فعال مع أبناء ثقافته أو أبناء ثقافة غيره، أن يعتمد على الكلام ولغة الجسـد بشـكل منسـجم ومتناسـق، لأنّ ذلك تمام الإبلاغ والبلاغة، أمّا الاعتماد على أحدهما دون الآخر، ودون سبب يقتضي ذلك، فمن شأن هذا أن يوقع الشخص فيما لا تحمد عقباه، وهذا ما يؤكده (مدحت محمد أبو النصر) بقوله: "إنّ أفضل اتصال هو الذي يجمع بين الاتصال اللفظي و الاتصال غير اللفظي– لغة الجسد – حتى يتحقق تواصل إيجابي ومباشر ووجها لوجه بين المراسل والمستقبل بما يسهم في تحقيق التفاهم والفهم المشترك للرسالة المراد توصيلها إلا أن الاعتماد فقط على لغة الجسم في الاتصال بالآخرين– مع أهميتها– عملية تحفها المخاطر حيث قد يحدث سـوء فهم للغة جسـم الآخرين"[42] وعليه فإذا سلمنا بما ورد في المأثور: (من تعلم لغة قوم أمن شرهم) فإنّه من الضروري التسليم أيضا بأنّ من تعلم لغة جسد قوم أمن شرّهم وأمن الإحراج.

خامسا الحركة الجسدية بين الإراديّة و التلقائية:

قد يبدو أن تحريك بعض أطرافنا أو أعضـائنا لا يتم إلا إذا أردنا نحن ذلك، غير أن الواقع يثبت أننا في كثير من الأحيان قد نقوم ببعض الحركات بشـكل لا إرادي أو بغير وعي، كأن يقع أحدنا في تناقض أو مأزق فيحكّ رأسه من غير قصد أو دراية، والأمثلة على ذلك كثيرة، وعليه فحركاتنا جسدية متأرجحة بين الإرادة والعفوية.

أما الحركات الجسدية الإرادية فهي مما يقصد إليه الإنسان قصدا فيستعين بها على أداء مُراده وتجليته، ومن ذلك إشارة تعيين المكان باليد أو الإصبع، أو إشارة التصامم آن سماع صوت مزعج أو مكروه مسـتقبح؛ وعمادها وضـع اليدين أو الأنامل في الأذنين، كذلك حكّ الرأس، وفتل الأُذن، وضرب الأرض بالرّجل، وإشارة اليد المنادية القائلة تعال، وإشارة اليد الطالبة المستنطية، و الحق أن ذلك كثير كثرة ظاهرة، وكل ما تقدَّم حركات جسدية إرادية حمّالة لدلالات[43] متعارف

عليها في منظومة لغة الجسد، غير أنّ هناك "إشارات و إيماءات وحركات الجسم لها مدلولات هامة في عملية الاتصال وهي في بعض الأحيان تتم بشكل غير إرادي في عملية الاتصال"[44].

وهذا الضرب الثاني هو بخلاف ما تقدم فالحركات الجسدية التلقائية و المقصد المتعين منها أنها الحركات التي لا أثر لإرادة المرء في تخلُّقها و تجلّيها في وجهه وجوارحه ومن ذلك ما يظهر في الوجه من دلالات على وَجَل الوجل وخجل الخجل ، فاحمرار الوجه إيماءة جسدية تلقائية تتخلق في الوجه تخلقًا غير مقصود و ليس بمُكنة المرء صدّها ومن استطاع إلى ذلك سبيلا فلن يكون ذلك طويلا البتة.[45]

وإذا شئنا أن نستدل على هذا من القرآن الكريم، فالآيتان الآتيتان كفيلتان ببيان هذين النمطين الإرادية واللاإرادية؛ الأولى من سورة نوح، ونقصد قوله تعالى: "وإنّي كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكبارا"[46] فذا الصنيع من لدن قوم نوح إرادي لا ريبة فيه، وأما الآية الثانية فقوله تعالى في سورة يوسف: "فلمّا سمعت بمكرهن أرسلت إليهنّ وأعتدت لهنّ متكأ وآتت كل واحدة منهنّ سكّينًا وقالت اخرج عليهن، فلمّا رأَيْنهُ أكبرنَهُ وقطّعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشرًا إنْ هذا إلاّ مَلَكٌ كَريمٌ"[47] وهذا الصنيع من لدن النسوة لا إرادي، إذ الدهشة كانت سببا في حركات يدهن اللاإرادية.

خاتمة:

إنّ "لغة الجسد" كما أومأنا إلى ذلك قديمة قدم الإنسان نفسه، بل ربّما عبّر بها الإنسان قبل اللغة الملفوظة، غير أنّ الاهتمام بها علميا متأخر جدا، سوى ما نعثر عليه من إشارات إليها في كتب التراث العربي والغربي، ككتب البيان والخطابة والفراسة وبعض المعاجم ... وقد ظلّت كذلك إلى أن ظهرت أبحاث ودراسات إدوارد هال " Edward Hall الجادة، والتي سعت إلى تأسيس علم يحصر قضايا اللغة الصامتة Silent language / التواصل الجسدي Bodily communication، وكل ما يتعلق بها، كالمسافة الفاصلة بين شخصين، أو ما أطلق عيه هال اسم "التواصل الحيزي" (البروكسيمي).

إن الغرض من هذه الدراسة هو إلمام الوعي بضرورة الاهتمام بهذا النوع من التواصل، والسعي إلى تطويره، على نحو ما يفعله الباحثون الغربيون حاليا، خاصة وأنّنا نملك من تراثنا في هذا الشأن

ما يكفي لأن نؤسس معرفة عربية في مجال لغة الجسد، كما نملك من أسماء الحركات والإشارات والأوضاع والهيئات المحفوظة في المعاجم العربية ما لا تمتلكه أمة أخرى، ولهذا يجب أن تتضافر جهودنا لهذا المسعى المحمود، مستلهمين التراث مستشرفين الحداثة الرؤيوية.

الإحالات:

(1) ابن جني أبو الفتح عثمان: الخصائص، تح: عبد الكريم بن محمد، المكتبة التوفيقية ، د.ط وت ، ج1 ، ص 44.

(2) الجاحظ أبو عثمان عمرو: البيان والتبيين ، تح: عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط7، سنة 1998، ج1،ص 78.

(3) سورة مريم : الآية 29.

(4) الجاحظ : الحيوان، تح: عبد السلام هارون ، مكتبة الجاحظ ، مصر،ط2 ،1965،ج1،ص78.

(5) الجاحظ أبو عثمان عمرو: البيان والتبيين ، ج1، ص 76.

(6) ينظر: الحيوان: ج 1، ص 45.

(7) الجاحظ: البيان والتبيين،ج1، ص77.

(8) الجاحظ : الحيوان ،ج1، ص45.

(9) الثعالبي (أبو المنصور عبد المالك بن محمد بن اسماعيل) فقه اللغة ،تح: جمال طلبة، منشورات محمد علي بيضوت، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (دط)، (دت)، ص213.

(10) المصدر نفسه، ص 225.

(11) المصدر نفسه، ص214-216.

(12) ابن جني أبو الفتح عثمان: الخصائص، ت: محمد علي النجار، ، دار الكتب المصرية ط2، 1952،ج ، 1ص245.

(13) المصدر نفسه، ج1، ص 245.

(14) المصدر نفسه، ج1، ص 247.

(15) مدحت محمد أبو النصر: لغة الجسم – دراسة في نظرية الاتصال غير اللفظي، مجموعة النيل العربية مدينة النصر- القاهرة، ط1، سنة 2006، ص 65.

(16) المرجع نفسه، ص 65.

(17) باتريك شارودو ودومينيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، ت: عبد القادر المهيري وحمادي صمود، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، دط، 2008، ص 464.

(18) مدحت محمد أبو النصر: لغة الجسم، ص 66.

(19) مهدي أسعد عرار: لغة الجسد في النص القرآني الشريف, مجلة اللغة العربية, المجلس الأعلى للغة العربية, الجزائر، العدد 20، السداسي الثاني، 2008 ص 69.

(20) مدحت محمّد أبو النّصر : لغة الجسم، ص 66.

(*) يعود الفضل في الإشارة إلى هذه الثنائيات إلى الدكتور مهدي أسعد عرار في كتابه (البيان بلا لسان)، غير أنّه لم ينعتها بثنائيات لغة الجسد، وقد أشار إلى بعض هذه الثنائيات مدحت محمد أبو النصر في كتابه لغة الجسم.

(21) ينظر: مهدي أسعد عرّار، البيان بلا لسان، ص29.

(22) ينظر: كريم زكي حسام الدين: الإشارات الجسميّة، دراسة في نظرية الاتصال غير اللفظي ،مجموعة النّيل العربية ،مدينة النّصر القاهرة، ط1، 2006، ص116-117.

(23) مهدي أسعد عرّار، البيان بلا لسان، ص29 و30.

(24) مدحت محمّد أبو النصر، لغة الجسم، ص92.

(25) كريم زكي حسام الدين، الإشارات الجسمية، ص117.

(26) ضياء غني لفتة وعلي محسن بادي، لغة العيون، قراءة خطاب العين في الشعر العربي القديم، دراسة أسلوبيّة، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان – الأردن ، ط1، 2008، ص31.

(27) ينظر: مهدي أسعد عرّار، البيان بلا لسان ، ص31.

(28) المرجع نفسه، ص31-32.

(29) ينظر: كريم زكي حسام الدين، الإشارات الجسميّة ، ص70.

(30) مهدي أسعد عرّار، البيان بلا لسان، ص32.

(31) المرجع نفسه، ص32.

(*) المقصود بالتفاصيل هنا هو إتيان المرء حركات متصنّعة بهدف التعمية والإلباس. ينظر البيان بلا لسان.

(32) ينظر: مهدي أسعد عرّار، البيان بلا لسان، ص 33.

(33) جرجي زيدان: علم الفراسة الحديث، دار الجيل، بيروت- لبنان، ط1،.ص13.

(34) المرجع نفسه، ص13.

(35) ينظر: مهدي أسعد عرار ،البيان بلا لسان، ص34.

(36) المرجع نفسه، ص 34.

(37) المرجع نفسه، ص35.

(38) المرجع نفسه، ص36.

(39) ينظر: مدحت محمد أبو النصر: لغة الجسم ، ص 173.

(40) المرجع نفسه، ص174-176.

(41) المرجع نفسه، ص 176-177.

(42) المرجع نفسه، ص171.

(43) ينظر: مهدي أسعد عرار: البيان بلا لسان، ص38.

(44) مدحت محمد أبو النصر: لغة الجسد ص 172.

(45) ينظر مهدي أسعد عرار البيان بلا لسان ص 38.

(46) سورة نوح، الآية 7.

(47) سورة يوسف، الآية 31.